مجزوءة المماليك والعثمانيين

القسم الأول : المماليك

المحاضرة الأولى:

(المصادر والمراجع+ مدخل عام)

السنة الجامعية: 2020-2021

بعض المصادر والمراجع

- الأسرة الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، حلمي مصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، - 2004 .
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، محمد سهيل طقوش،. دار النفائس.
- تاريخ الدولة العثمانية العلية، إبراهيم بك حليم، مؤسسة الكتب الثقافية.
- تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، خليل اينالجك. ترجمة محمد م الأرناؤوط دار المدار الإسلامي.
- تاريخ الدولة العثمانية، شكيب أرسلان. تحقيق حسن سويدان. دار ابن كثير 2001.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، فريد بك محمد، دار النفائس، بيروت، ط. - 2 ، 1983 .
- تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان كارل، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم - للملايين، بيروت، ط. 5 ، 1986 .
- تاريخ المماليك فى مصر وبلاد الشام، لمحمد سهيل طقوش، بيروت، دار النفائس، ط،1. 1997.
- تاريخ دولة المماليك في مصر، السير وليم موير، ترجمة: محمود عابدين، سليم حسن وكتبة -مدبولي،
- مواعظ الاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقرزي، "" المشهورة بـ"خطط المقريزي "
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، دار الكتب العلمية.
- درة الأسلاك في دولة الأتراك،ابن حبيب الحلبي مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة, 2014
- ابن الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، نشره البابي الحلبي سنة: 1402 – 1982 (الجزءان:7و8)
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور،. القاهرة 1987
- أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك حسن البطاوي، ".عين للدراسات والبحوث ، الطبعة الأولى 2007م
- فتح المماليك لقبرص في القرن9هـ/15م، محمد مصطفى زيادة، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد الأول(القاهرة)، مج2، ج1، مايو1934م، ص37-57.
- ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر،محمد مصطفى زيادة، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد الأول(القاهرة)، مج4، ج1، مايو1936م، ص71-88..

- نهاية السلاطين المماليك في مصر محمد مصطفى زيادة، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، مج4، ج1، مايو1951م، 197-228.
- محمد بن إياس "ثالث مؤرخي عصر المماليك"، محمد مصطفى زيادة، مجلة العربي، الكويت، ع31، 1961م، ص99-102.
- تاريخ سلاطين آل عثمان، القمراني أحمد، دار البصائر، دمشق، - 1985
- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، يانجن جورج، ترجمة: شكري علي أحمد.
- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، حمدي عبد المنعم محمد حسين، دار المعرفة الجامعية للطبع - والنشر، 2000 .
- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الصلابي محمد، دار - التوزيع والنشر الإسلامية، بور سعيد، 2001 .
- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد، ، العبيكان، - 1992 .
- الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914 مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة. 1985.
- الدولة العثمانية والشرق العربي، أنيس محمد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، - 1993.
- الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة،إحسان أوغلي أكمل الدين، ترجمة: صالح سعداوي، منشورات - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية، استانبول، 1999 .
- دولة المماليك،شوقي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، - 1982 .
- عثمان شوقي عبد القوي، التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك - 1250 - 1517 م،المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000 .
- العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة،بنحادة عبد الرحيم، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، - 2008 .
- عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي قاسم قاسم عبد، ، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007 .
- عصر سلاطين المماليك، لقاسم عبده قاسم. دار الشروق.
- العهد المملوكى، محمود شاكر،دار المكتب الاسلامي. 1991م - 1442هـ
- في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى. دار الشروق 1982.

- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، العبادي أحمد مختار، دار النهضة العربية، بيروت، - 1995 .
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، العبادي أحمد مختار، دار النهضة العربية، بيروت، -
- مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة - 1382 - 1517 م، طرخان إبراهيم علي، مكتبة النهضة المصرية، 1960 .
- المماليك والشام في عصر الأيوبيين ، عاشور عبد الفتاح، مصردار النهضة العربية، بيروت،
- المماليك،العريني السيد الباز، دار النهضة العربية، بيروت، - 1999 .
- موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي. مكتبة النهضة الاسلامية 1982.
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر،ماجد عبد المنعم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، -

مقدمة:

تهدف هذه المحاضرات حول المماليك والعثمانيين والمقدمة لطلبة الفصل الثاني تخصص التاريخ بكلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس برسم السنة الجامعية: 2020-2021 تمكين الطلبة من التعرف على فترة هامة من فترات تاريخ هذه الأمة، والتي عرف فيها العالم الاسلامي تنافس ثلاث قوى كبرى هم المماليك والعثمانيين والفرس على القيادة، ناهيك عن أن هذه الفترة من الفترات التاريخية التي فيها الكثير من البياضات نظرا للتجاهل الذي قوبلت به هذه فنادرا ما تتطرق الأقلام لبعض قضاياها، من علاقات المماليك والعثمانين مثلا حتى ظن الكثيرون أن العلاقة بين الطرفين كانت عسكرية فحسب، ناهيك عن اعتقاد آخرين أن عصر المماليك هو عصر انكسار الحضارة الإسلامية، وغير من الأحكام المجحفة في حق هذه الدولة. ولا شك الفترة الزمينة لا تسعف بعرض انجازات الدولتين في مختلف المجالات، ولا تتبع حوادثها أو استعراض شخصياتها وعلمائها بيد أننا سنكتنفي بإشارات مختصرة وخاطفة لبعضها في هذه المحاور المقدمة للطلبة.

وعليه، إذا ما أردنا أن نقسم المادة إلى محاور كبرى أساسية، فستكون مكونة من قسمين رئيسيين: **القسم الأولى** خاص بالمماليك يتخللها مدخل عام لأهمية دارسة تاريخ المماليك والعثمانيين، مع الاشارة في محور أول لبعض الكيانات السياسية التي ظهرت قبل المماليك وليكون المدخل حلقة لما درسه الطلبة في الفصل الأول، أما المحور الثاني فسنقف فيه على مصطلح المماليك ودلالته اللغوية والاصطلاحية دون ان ننسى الخصائص المميزة لهذه الطبقة وأصولها، بينما المحور الثالث والرابع فسنقف فيهما عند المماليك البحرية والبرجية، وسنعتمد على بعض العناصر التي قدمها لكم زميلنا د. أ. البوزيدي السنة الماضية، لنختم القسم بمحور خامس حول العوامل والأسباب التي أدت لانهيار هذه الدولة.

اما القسم الثاني، فقد آثرت في هذا الصدد أن اكتفي بالعناصر التي قررها الأستاذ الفاضل الصافي رحمه الله تعالى حين درس مادة العثمانيين في السنوات الماضية، وقسمها لجزئين عرض في الأول للسلطنة العثمانية من التأسيس حتى الأوج، أما الثاني فعنونه بمرحلة الضعف والانهيار.

وكلا القسمين يغطيان بعض النقاط الأساسية التي ينبغي على الطالب أن يعرفها عن هذه الفترة، وإن كانت العودة للمصادر والمراجع المثبتة في بداية هذه المحاضرات أمر لا غنى عنه لتوسيع المدارك التاريخية عن كلا الدولتين. **والله ولي التوفيق.** 25 ابريل 2021

مدخل عام: دولة المماليك والعثمانيين

إن فترة حكم المماليك والعثمانيين أهمية كبرى في حياة الأمة الإسلامية في مختلف المستويات، فقد أسس المماليك مثلا في منتصف القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي دولة مترامية الأطراف شملت مصر وبلاد الشام، وامتد حكمهم على مدى ثلاثة قرون تقريباً من الزمن- وضعفه بالنسبة للعثمانيين-، وأحرزوا باسم الإسلام انتصارات باهرة، وما زالت أسماء مواقع عين جالوت[1]، ومرج الصفّر[2]، والمنصورة[3] التي بفضلها سطع نجم المماليك، وأدت لمعركة أخرى هي فارسكور[4]، وطرابلس، وعكا... وغيرها نماذج للتضحية والفداء بقيت راسخة عبر التاريخ.

ليس هذا فحسب، وإنما يوصف العصر المملوكي أيضا **بعصر النهضة والتدوين** اللذان شملا مختلف المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية، ولعله يمكننا القول أن من لطف الله تعالى بهذه الأمة ان ييسر لها بين الفينة الأخرى من يحفظ لها تراثها العلمي، حتى عد أحد الدارسين "أن من أعظم إيجابيات علماء ذلك العصر أنهم أعادوا وفي زمن قياسي جمع ما خسرناه من التراث والفكر العربي الإسلامي الذي تعرض للنهب والإحراق والإغراق والإتلاف على يد المغول، وتابعوا فوق ذلك مسيرة التأليف والإبداع، فكونوا نهضة كبرى توجت حلقات تطور الحضارة العربية الإسلامية"[5].

ويكفي الاشارة أن هذه الفترة عرفت بأنها من أغنى أوقات التدوين في حياة الأمة إذ ظهر خلالها الإمام النووي وهو علاّمة الفقه والحديث، والعز ابن عبد السلام سلطان العلماء، وابن

---

[1] - تعدُّ معركة عين جالوت 25 رمضان 658 هـ/ 3 سبتمبر 1260م، واحدة من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، التي اعادت هيبة جيش المماليك ففيها استطاع إلحاق أول هزيمة عسكرية بجيوش إمبراطورية المغول التي توغّلت من أقصى شرقي أسيا حتى شمالي آسيا وأوروبا.

[2] -معركة شَقحَب أو معركة مرج الصُفر، معركة بدأت في 2 رمضان سنة 702هـ/ 20 إبريل 1303م، واستمرت ثلاثة أيام بسهل شقحب بالقرب من دمشق في الشام. كانت المعركة بين المماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام والمغول بقيادة قتلغ شاه نويان.

[3] -هي معركة حربية دارت أحداثها بمدينة المنصورة (مصر) بين الأيوبيين والحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة (647هـ/ 1250م)، وتعد هذه المعركة من أهم العوامل لبزوغ فجر الدولة المملوكية وأفول نجم الدولة الأيوبية، حيث نجح جنود الملك الصالح أيوب -الذي اشتراهم بكثرة واهتم بتدريبهم عسكريًا حتى أصبحوا عماد جيشه- في تحطيم آمال لويس التاسع وإفشال الحملة الصليبية السابعة.

[4] -معركة فارسكور، كانت آخر المعارك الكبرى في الحملة الصليبية السابعة. دارت المعركة في 6 أبريل 1250، بين الصليبيين تحت قيادة الملك لويس التاسع من فرنسا (لاحقاً القديس لويس والقوات المصرية تحت قيادة توران شاه الأيوبي. في أعقاب الهزيمة السابقة للصليبيين في معركة المنصورة، أسفرت المعركة عن هزيمة كاملة للجيش الصليبي وأسر لويس التاسع.

[5] - الدراسات النظرية الجديدة لدولة المماليك البحرية، عمار محمد النهار. مجلة دراسات تاريخية–العددان ١١٧ -١١٨كانون الثاني-حزيران لعام2012 .ص:247.

تيمبة، وابن القيم الجوزية، وابن حجر العسقلاني، والذهبي، وابن جماعة، وابن كثير والمقريزي،[6] لذا لم يكن غريبا ان يكون هذا العصر هو **العصر الذهبي للأدب الموسوعي العربي**، إذ ألفت فيه الموسوعات العلمية ما لم يؤلف في غيره من العصور وخصوصا من قبل علماء مرموقين مقربين من البلاط السلطاني، مثل شهاب الدين النويري[7] وابن فضل الله العمري[8] وأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي[9] وجمال الدين الوطواط[10] وحتى من غيرهم ممن ذكرنا بعضهم آنفا.

إضافة إلى أهمية هذه الفترة من **الناحية الجيوسياسية** بالتعبير المعاصر، فقد شكلت نهاية المماليك حادثا بارزا من ناحية الجغرافيا السياسية ترتب عنه **نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية** لأول مرة في التاريخ من غرب آسيا وشمال إفريقيا إلى ركن استرتيجي آخر بأقصى الجنوب الشرقي من أوربا أي مدينة القسطنطنية وهي التي كانت عاصمة الدولة البيزنطية ومركزا لحضارتها وثقافتها، ورمزا لسلطتها الأرثوذكسية على بلاد المسيحية الشرقية، ولمدة قاربت الألف سنة، قبل

---

[6] - العهد المملوكي، محمود شاكر،دار المكتب الاسلامي. 1991م - 1442هـ صص:16-17.

[7] - أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، المؤرخ الكبير **شهاب الدين النويري** نسبة إلى نُوَيْرة من قرى بني سويف بمصر، وُلِدَ بقُوْص المصرية سنة 677هـ، ونشأ بها. يكفي شهاب الدين النويري فخراً أنه مصنف «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وهو كتاب كبير جداً، استغرق عشرين سنة لتأليفه وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره، يقول فازيليف: "إن «نهاية الأَرَب» على الرغم من تأخر عصره، يحوي أخباراً خطيرة عن صَقِلِّيَّة، نقلها عن مؤرخين قدماء، لم تصل إلينا كتبهم؛ مثل ابن الرقيق، وابن رشيق، وابن شداد، وغيرهم.

[8] - أحمد ابن **فضل الله العمري** أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر القرشي العدوي العُمري، أبو العباس شهاب الدين، يتَّصل نسبه بعمر بن الخطاب ويعد واحدًا من رواد علوم الأدب والجغرافيا والحضارة والعمران في تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد احتل مكانة علمية كبيرة على المستوى العربي والإسلامي والعالمي؛ نتيجة جهوده العظيمة في مجال الدراسات الأدبية والجغرافية والتاريخ وأحوال العمران. ويكتسب كتابه الموسوعي »مسالك الأبصار في ممالك الأمصار« أهمية كبيرة، فهو موسوعة شاملة عن العالم العربي والإسلامي حتى القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي، ومن أضخم الموسوعات العربية التي تفاخر معظم مكتبات العالم بامتلاك أجزاء منها.

[9] - هو القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبي اليمن **الفزاري القلقشندي** ثم القاهري الشافعي، الفقيه، المؤرّخ، الأديب، البحَّاثة، المصنف. وُلد في قلقشندة من قرى محافظة القليوبيَّة بقرب القاهرة (سمَّاها ياقوت قرقشندة)، وذلك سنة (756هـ=1355م) كان عمل القلقشندى في ديوان الإنشاء وراء تأليفه لموسوعته الضخمة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"؛ فقد أتاح له العمل في الديوان التعرُّف على كلّ تفاصيل النظم السياسية والإدارية لسلطنة المماليك عن قرب، وقد استغرق تأليف هذا العمل الموسوعي عشر سنوات حتى أتمَّه. ويبدو أنَّ تأليف القلقشندي لموسوعته كان بناءً على طلبٍ من أحد كبار المسئولين في الدولة وربَّما كان السلطان نفسه.

[10] - جمال الدين، محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المروي الأنصاري، الوراق الكتبي المشهور بالوطواط(718هـ). كانت صناعته الوراقة وبيع الكتب. مولده ووفاته بالقاهرة. ألّف وجمع وصنف في فنون مختلفة، مستفيداً من عمله في الوراقة، ونسخه لأمهات الكتب العربية في العلوم المتباينة، وقد اشتهر من مؤلفاته كتاب «غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص الفاضحة»، ضمنه طائفة من الأقوال والأخبار والحكايات والأشعار في الأخلاق والطبائع، وجعله في ستة عشر قسماً، منها ثمانية في الفضائل، ومثلها في الرذائل، وله أيضاً كتاب «مناهج الفكر ومباهج العبر» وهو كتاب موسوعي يحوي بعض المعارف في الطبيعة والفلك والجغرافيا والنبات والحيوان والكيمياء، ومزج فصوله بالأدب، وله مجموعة رسائل أدبية.

ان يحل العثمانيون بالقسطنطنية محل البزنطيين، وهذا الحدث يعد من الأحداث الجليلة التي القت بظلالها ليس على المنطقة فحسب وإنما على العالم ككل،[11]ولن نبالغ بالقول أن القسطنطينيَّة شكلت قبل فتحها عقبةً كبيرةً في وجه انتشار الإِسلام في أوربا، ولذلك فإِنَّ سقوطها يعني: فتح الإِسلام لدخول أوربا بقوَّةٍ وسلامٍ لمعتنقيه أكثر من ذي قبل. ولذلك كان فتح القسطنطينيَّة من أهمِّ أحداث التَّاريخ العالميّ، وخصوصاً تاريخ أوربا، وعلاقتها بالإِسلام؛ حتَّى عدَّه المؤرِّخون الأوربيُّون، ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى، وبداية العصور الحديثة وأكسب العثمانيين هيبة كبرى استمرت لفترة زمنية طويلة.

وهو الحدث نفسه الذي قلب الموازين في العالم المسيحي بقفدانه لأهم مراكزه الدينية، وأدى لأول مرة إلى جلوس القادة الأوروبيين للتفكير في تجارتهم، وفي كيفية تأمين الموارد اللازمة لهم، والبحث عن طرق بديلة للقوافل التجارية الأوروبية للوصول إلى الشرق. كان هذا الحلم الأوروبي مقدمة لحدوث "الخطأ التاريخي" الأكثر حظاً للأوروبيين في ما بعد، عندما ظنَّ المستكشفون أنهم وصلوا إلى الهند بعد اكتشافهم لأمريكا.

أما على مستوى العالم الإسلامي، فقد أدى استيلاء العثمانيين على القاهرة **نقل المذهب الرسمي** في المجتمع المصري من الشافعية إلى الحنفية، وقد كان لهذا آثره العميق في المجتع المصري، كما كشفت هذه الفترة عن تنافس عنيف بين السنة والشيعة من أجل السيادة الاسلامية العليا، كانت من تجلياته حروبا دامية بين العثمانيين والصفويين في ايران، واعتقد المماليك ستستفيد منها.[12]

ولكن على الرغم من هذه الأهمية التي أشرنا لجانب من ثراءها الثقافي والعلمي خلال هذه الفترة، وكذا الأعمال الجليلة التي قدمها المماليك للأمة جهادا وفداء؛ وفي مقدمتها حماية الأماكن المقدسة الإسلامية من مخططات الصليبية وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية، وإبعاد الزحف الصليبي عن ديار الشام ومصر، وغيرها من الاراضي الاسلامية، رغم هذا وذاك فإن هذه الفترة التاريخية ظلت من أكثر الفترات المجهولة عند الكثيرين بل حتى عند المثقفين أنفسهم، وقد

[11] - يمكنكم مراجعة محاضرات تاريخ اروبا العصور الوسطى المقدمة في الفصل الأول للوقوف على اسباب ونتائج تأسيس هذه المدينة 330م .

[12] - نهاية السلاطين المماليك في مصر، مصطفى زيادة. مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، مج4، ج1، مايو1951م، 199-200-

وصفها محمود شاكر بأنها من"**أكثر مراحل التاريخ الإسلامي غموضا**"[13] وقد تظافرت أسباب عدة كانت وراء ذلك من بينها:

*- أن ما وصلنا من تراث عظيم من العصر المملوكي ما زال مخطوطاً ومحفوظاً في مختلف أنحاء مكتبات العالم في الشرق والغرب. ومازلنا كل يوم وكل فينة نكتشف كنزاً جديداً من كنوز تراث ذلك العصر، لذلك لا يزال هذا التراث مجالاً خصباً للدراسة والتحقيق، وقد بدأت بوادر الاهتمام به بعد فترة طويلة من عدم الاكتراث وقلة التقدير والجفاء . فلقد شهد عصر المماليك انتعاشاً فكرياً عظيماً يوازي في كثير من تفاصيله ما شهدته الحضارة العربية الإسلامية من نهضة في عصورها المختلفة، فالباحث في هذا المجال يجد بسهولة المئات من المؤلفات التي تتكلم عن المئات من العلماء الذين صبغوا العصر بفكرهم، وملؤوه بمؤلفاتهم التي احتوت على كثير من الإبداعات والإنجازات، التي ما زالت إلى يومنا هذا تملأ مكتبات العالم في الشرق والغرب. ويشكل مضمون الواحد من هذه المؤلفات التي وصلتنا من العصر المملوكي موسوعة ضخمة تجمع التاريخ والجغرافية والعلوم النظرية والعلوم التطبيقية والتراجم وقد أشرنا آنفا لنماذج منها.

*- أن الفترة التي ظهرت فيها دولة المماليك كانت فترة فرقة في الأمة حيث ظهرت بها الكثير من الإمارات والدويلات المتعددة... من تجلياته الصراع بين البيت الأيوبي والسلاجقة هذا من جهة، ومن جهة أخرى الغزو الصليبي والمغولي... لذا شكلت دراسة هذه الفترة على الدوام صعوبة كبرى لأي دارس لما تحتاجه من جهد ضخم لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية، إذا أن المماليك في أوج قوتهم وعظمتهم لم يسيطروا سوى على خمسة أو ستة أقطار من الأقطار المعروفة في ذلك الوقت.

*- وينضاف إلى ذلك أن ظهور تزامن مع ظهور أكثر من كيان أو دولة في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي، مع ما يفرضه دراسة دولة المماليك من إلمام أو دراسة لتاريخ كل هذه المناطق في تلك الحقبة من التاريخ سويا، وهذا أمر متعذر وصعب في بعض الحالات.

*- ومن العوامل والأسباب التي أدت الى جهل الكثيرين بفترة المماليك كثرة الولاة والسلاطين في هذه الدولة، إذ كلما ظهر وال أو سلطان في فترة وبدأت هذه الفترة تفهم، تغير السلطان وأتى

[13] - العهد المملوكي، محمود شاكر،دار المكتب الاسلامي. 1991م - 1442هـ ص: 12.

آخر. ففي المرحلة الأولى والتي تسمى المماليك البحرية والتي دامت 144 سنة تعاقب على الحكم فيها 29 سلطانا، مما يعني أن متوسط حكم كل واحد منهم لم يكن يتجاوز الخمس سنوات، ولا يعني هذا أنهم كلهم حكموا هذه الفترة بل هناك سلاطين حكموا سنة أو سنتين أو أقل من السنة، فكثرة السلاطين والولاة كانت أحد الأسباب التي جعلت البعض يعزف عن دراسة هذه الفترة.

*_ إن عصر المماليك هذا تعرض لظلم ما بعده ظلم، فوصف بأوصاف بعيدة جداً عن واقعه، ومن ذلك أن المشتغلين باللغة والآداب العربية أطلقوا عبارة (عصر الانحطاط) على الحضارة العربية الإسلامية في عصر المماليك، وهم يعنون بذلك أن هذا العصر لم يكن عصر أصالة وإبداع في العلوم عامة، كما أنه لم يوجد فيه من المؤرخين والأطباء والفلكيين والمحدثين والفقهاء والفلاسفة والشعراء والأدباء من يضاهي أمثالهم من القرون الثلاثة الأولى وهي العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية. كما وصف عصر المماليك أيضاً أنه عصر تقهقر فكري، وعصر اجترت فيه العلوم اجتراراً، وعصر خال من الإبداع بالكلية. واتهم آخرون ذلك العصر بأنه عصر مختصرات وشروح، لا إبداع فيه ولا ابتكار. ولكن على الرغم من ظهور المختصرات والشروح بكثرة في ذلك العصر، إلاّ أنها ظهرت إلى جانب كثير من الأبحاث الجديدة؛ هذا أولاً، وثانياً كان لظهورها أسباب منطقية وواقعية وضرورية؛ ولعل أهم الأسباب الكامنة وراء ظهورها هي ظروف الحروب الصليبية (حروب الفرنجة) التي رافقت ذلك العصر وظلت آثارها وقتاً طويلاً، فتوجه العلماء إلى المختصرات لاستدراك أكبر قدر من العلم الذي ضاع على يد التتار الذين استباحوا كل شيء، فظهر التعويض السريع لما فقد من التراث.

*- لقد كانت دولة المماليك من الفترات التاريخية التي تعرضت للتشويه من طرف المستشرقين وعلى رأسهم "وليام موير" و"هنري لاوست" و "بروكلمان"ومن سار على دربهم، فعلى الرغم من بعض الإنجازات المشرقة، والأعمال الجليلة لهذه الدولة والتي من بين أجلها أن هذه الدولة كانت سدا منيعا لصد قوتين عظيمتين وهما التتار، والصليبيين. فقد وصف بروكلمان الإنتاج العلمي في ذلك العصر بأن "إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية"، وقول فيليب حتي عن عصر المماليك بأنه: « عصر تجميع وتقليد أكثر منه عصر توليد وإبداع ».

*- كما اتسم عصر الدولة المملوكية بزخم في مصادرها المتنوع، وكذلك بتشابك أحداثها وكثرة الأطراف المشاركة في صناعتها، سواء من داخل الدولة أو خارجها. وهناك رواد كتبوا عن هذه الدولة والأحداث المعاصرة لها، ولكنها غالبا كانت كتابات مسحية تمر سريعا بتلك الأحداث؛ فظلت الحاجة دائمة إلى تغطية أطول مدة زمنية وكذا سد البيضات في تاريخ هذه الدولة.

*- وخلال هذه الفترة شهدت الأمة الإسلامية لأول مرة في التاريخ تنصيب إمرأة سلطانة في دولة المماليك وهي شجرة الدر، دعي لها على المنابر باسم "عصمة الدين أم خليل" وسكت اسمها على العملة، وإن اختلفت الروايات التاريخية بين من اعتبرها آخر سلاطين البيت الأيوبي باعتبارها زوجة الملك الصالح أيوب الملقب بأبي الفتوح، وأخرى عدتها أول سلاطين دولة المماليك... بيد أنها لعبت دورا محوريا على الرغم من أن فترتها ولايتها لم تتجاوز ثلاثة أشهر.

*- تعتبر الدولة العثمانية من بين أكبر الإمبراطوريات التي عرفتها ليس فقط تاريخ الأمة الإسلامية فحسب ، وإنما تاريخ البشرية سواء من حيث اتساع الرقعة الجغرافية التي حوتها إذ امتدت على أجزاء واسعة وشاسعة حوت أراض من القارات الثلاث إفريقيا وآسيا وأوربا، ناهيك عن أنها شملت حقب تاريخية مختلفة من العصور الوسطى إلى الفترة المعاصرة. ولذلك يصعب اختزال تاريخ دولة حكمت مجالا واسعا يمتد على ثلاث قارات واستمرت قائمة لما يقرب من 600 سنة، وأسال تاريخها مدادا كثيرا في مختلف أنحاء العالم وبكل اللغات.